من النقل إلى العقل في ميزان المفكر حسن حنفي

From Transmission to the Mind according To HAssan HAnafi

د. سعيد تومي *

تاريخ الإرسال: 2019/12/15	تاريخ القبول: 2019/12/21	تاريخ النشر:2019/12/25

الملخص:

نتطرق في هذا البحث إلى المنجز التأويلي عند أحد كبار المفكرين العرب الذين اشتغلوا على التراث بمفهومه الواسع ونقصد به المفكر الفيلسوف حسن حنفي من خلال سلسلته الشهيرة من النقل إلى العقل، حيث سلطنا الضوء على كيفية اشتغاله على النص المقدس من خلال محاولته إعادة قراءة مجموع الحوامل الموضوعية (المكان ـ البيئة الاجتماعية ـ الزمان) ودورها في تأويل النص لما لها من أهمية كبرى في توجيه القراءة الجديدة والمتجددة له، غايته في ذلك إعادة بناء التراث عامة في إطار الوعي الفردي والجمعي كخطوة رئيسة للانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل إعادة بناء الحضارة الإسلامية عبر مراحلها الثلاث على أنقاض ما وصلنا إلينا من تفاسير وشروحات وعلوم شتى.

الكلمات المفتاحية: حسن حنفي، النّقل، العقل، الحوامل، الموضوعية، المكان، الزمان، البيئة، الاجتماعية.

Abstract:

In this paper, we discuss the interpretative achievement of one of the leading Arab thinkers who worked on heritage in its broad sense. .We target the famous series of Transmission to the Mind written by the philosopher and thinker Hassan HanafiWe shed light on the way he worked on sacred text by trying to read the total Tributaries Of objectivity (the social environment, the geographic places and the historical times) and its role in the interpretation

المؤلف المرسل: تومي سعيد ، البريد الالكتروني saidtoumi54@yahoo.fr

* جامعة البليدة2 البريد الالكتروني: saidtoumi54@yahoo.fr ـ

of the text .More importantly, it has a great role in directing the new and the renewed reading

.Its aim in is to rebuild the heritage in general within the framework of individual and collective awareness as a major step to move to a new stage of rebuilding the Islamic civilization through its three stages on the basis of what reaches us from Various interpretations, explanations and sciences

The key words:Hassan Hanafi, transmission, the mind, Tributaries Of objectivity

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

مدخل:

لا يستقيم الظلّ والعود أعوج هي مقولة تراثية تحدد بدقة متناهية قيمة المصر على الخطأ ولو علم بخطئه، كما تظهر إلى حد بعيد أنّ الانحراف العقائدي أو لنقل الدّيني لم يستقيم ما دام هناك إصرار على الخطأ، إنّنا نستلهم أفكار كبار المفكرين المعاصرين ليس لأنهم جاؤوا بالجديد المباين لمن سبقهم، وليس لأن لهم من الجرأة ما سمح لهم بتكسير وتحطيم كل الأسيجة الدوغمائية، ولكن لأنهم مجتهدون علموا أن اجتهادهم وإن وُسم بالخطأ فله أجر واحد، وإن أصابوا فيما ذهبوا إليه فله أجران.

تلك هي إذن مصيبة هذا الوطن العربي الكبير. على أن عجلة التفكير لم تتوقف لموقف فلان أو علا ن أو حتى أنها لم تخضع لتضييق السلطة الدينية... فأمام التوجه العنيف لهاته السلطة لكل تفكير حر نقف عاجزين أمام خيار الاجتهاد كأقصر طريق وأنجعه لإعادة قراءة تراثنا الكبير بما فيه النصوص الدينية المقدسة قراءة تتكئ على العقل عن طريق التحليل والاستقراء والاستنتاج والمقاربة والموازنة ولو استدعى الأمر الاستعانة بعلوم القرآن المختلفة. فنحن أمّة لا تعبد إلا الله لا أشخاصا ولا نقدس إلا المقدّس الذي يلتحف بهالة القداسة. فمنذ ثلاثة عقود من الزمن لا تزال مقولة المفكر الفيلسوف نصر حامد أبو زيد توقظ ضمائر الأحرار في كل العالم لقد قال يوما بملء فيه:"

أمتنا تعبد النّصوص يكفي أن تقول: قال فلان ليتوقف العقل عن التفكير" إنّها مصيبة رفض الآخر ورفض الحامول والاكتفاء بالمحمول.

نعم فكّر قبل أن تنطق وأنا أفكر إذن أنا موجود على رأي سارتر المفكر الفرنسي الشهير، فوجودك مرهون بتشغيل آلة العقل لأن العقل الذي قدّسه القرآن في عشرات الآيات منه لم يكن إلا إشارة واضحة إلى قيمة هذا الجهاز الذي وهبه الله للإنسان كي يوظفه لخدمة الدين والفكر والتجديد قبل كل شيء.

لقد شهد الساحة الفكرية العربية في النصف الثاني من القرن الماضي إلى بداية هذا القرن ثورة حقيقية ضد ما أصطلح عليه الفكر الدّيني. فهناك فرق واضح بين الدّين والفكر الديني. إنّ الدين هو تلك النصوص المقدسة التي حملها الوحي جبريل إلى النبي محمد (ص).أما الفكر الدّيني فهو تلك الشروح والتفاسير الّتي لازمت ذلك النّص إلى إلى يوم النّاس هذا..

حديثنا عن التفكير الديني الحديث والمعاصر يقودنا لا محالة إلى فكر واحد من الذين تركوا بصماتهم واضحة في هذا المجال، إنّه المفكر الفيلسوف المصري حسن حنفي، الذي لا تزال أفكاره المبثوثة في كتبه تصنع الحديث وتنير دروب طلبة العلم في الجامعة بل وفي بعض الأحايين هي مثار جدل خاصة ما تعلق منها بالنصوص الدينية. نحاول أن نستقصي أهمّها بالشرح والتحليل والنقد والمقاربة.

التراث والتجديد في فكر حسن حنفي:

لحسن حنفي كتابات كثيرة استأثر اهتمامه فيها بقضيّة التراث والتجديد نذكر منها: "نماذج من الفلسفة المسيحيّة في العصر الوسيط" (1968)، "في فكرنا المعاصر" (1976)، "التراث والتجديد" (1980)، "اليسار الإسلامي" (1981)، "مقدمة في علم الاستغراب" (1988)، "من العقيدة إلى الثورة" (1988)، "الدين والثورة في مصر" (1989)، "من النقل إلى الإبداع" (2000-2002)، "من النص إلى الواقع" (2003-2004)، "من الفناء إلى البقاء" (2009)، "من النقل إلى العقل" (2010)... ولعل هذا الأخير من أهمّ الكتب الّتي

أفرغ فيه عصارة فكره وجهده في هذا الموضوع، حيث كان هذا العنوان جامعا للكتب الأربعة الأخيرة وهو بجزأين الأوّل تطرق فيه إلى علوم القرآن والثاني تطرق فيه إلى علوم الحديث، استغرق في مجوعها أكثر من أربعين عاما إنّه عمر وهبه الرجل جاهدا مجتهدا في خدمة العلم والعقل معا.

وقد سبق كلّ هذه الكتب كتابه الشهير (التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم)، وهو كتاب نظري مهّد به للسلسلة العلمية التطبيقية الآنف ذكرها، حيث دشّن لعصر المعرفة الحقيقية المبنية على استبطان المختفي، محاولا قدر الإمكان الوقوف على مفهوم التراث ككمّ معرفي لا يمكن عن عزله وإبقاؤه على رفوف المساجد والزوايا بل تستدعي الضرورة لإخراجه إلى عالمنا المعاصر عن طريق إعادة قراءته قراءة متأنّية لتحرير المجتمع من هيمنة ما سماه هو ومعاصروه السلطة الدّينية الّتي تهاجم كل من يريد قراءة أو إعادة النّظر فيه، باعتباره مقدس والمقدس نص، والنّص لا اجتهاد معه ..لقد كان كتابه (التّراث والتجديد) نقطة البداية لمشروع أبان فيه الرجل عن دراية وإلمام بموضوع شغل الفرق المعتزلية في القرون الأولى بعد الوحي إنّه محاولة توجيه النظر نحو زاوية العقل بدلا من الاعتماد على النقل مستلهماً عصارة حزمة النظريات الفلسفية والنّقدية الحديثة خاصة اجتهادات مفكري النظرية التأويلية الحديثة خصوصا اجتهادات الفلاسفة الألمان شلايرماخر وديلثاي وهايدغر وغادامير وحتى الفرنسيين بول ريكور و الإيطالي امبرتو إيكو ... متكّئا على الإرث المعرفي الكلامي للعرب الأوائل خاصة عند المعتزلة والفرق الكلامية المختلفة. يقول في هذه الشأن مؤكداً على ضرورة قراءة التّراث وتجديده:" مُهِمَّةُ التُّراثِ والتَّجديدِ حلُّ طَلاسِمِ المَاضي مرَّةً واحدةً وإلى الأَبَد، وفكُّ أسرارِ الموروثِ حتَّى لا تعودَ إلى الظُّهور. مُهِمَّةُ التراثِ والتَّجديدِ التحرُّرُ مِنَ السُّلطةِ بكلِّ أنواعِها؛ سُلطةِ الماضِي، وسُلطةِ المورُوث، فلا سُلطانَ إلَّا للعَقل، ولا سُلطانَ إلَّا لِضرُورةِ الواقِعِ الذِي نَعيشُ فيهِ وتحريرِ وِجدانِنا المُعاصرِ مِنَ الخَوفِ والرَّهبةِ والطَّاعةِ للسُّلطة"[1]

لقد قسم حنفي مشروعه من خلال كتابه (التراث والتجديد) إلى ثلاثة أجزاء:

- الجزء الأول: حدّد فيه موقفه من التّراث العربي وكان واضح الطّرح، حيث دعا إلى إعادة بناء علْمَي النّقل والعقل، فأمّا الأوّل فيقصد به علم الحديث والتّفسير والفقه، وأمّا الثاني فيقصد به علم أصول الدّين والفلسفة وأصول الفقه والتصوّف وحتى العلوم الإنسانية الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النَفس..وقد كان هذا الجزء أهم جزء في كتابه هذا حيث اعتبر نواة لكتبه الأخرى وهي (من العقيدة إلى الثورة ـ من الفناء إلى البقاء ـ من النّص إلى الواقع..).
- الجزء الثاني: حدّد فيه موقفه من التّراث الغربي على اعتبار أنّ هذا الأخير يحتاج إلى قراءة واعية متأنيه للغوص في خلفياته المعرفية الضاربة في عمق التاريخ . فهو يرى أن هذا الإرث المعرفي قد أثّر فينا تأثيرا مباشرا تقليداً وانتهاجا لعدة عوامل مختلفة منها ما هو حضاري ومنها ماهو خاضع لطبيعة التفكير والتلاقح بين بين المجتمعات فكريا لأسباب مختلفة، وكان من نتاج ذلك كتابه المتميّز (علم الاستغراب)
- الجزء الثالث:حديث عن مفهومه للتّفسير ودوره في الجمع بين الحضارتين بقراءة معاصرة للتراث بهدف إستحداث ما يسميه حسن حنفي بلاهوت الأرض بتحويل الدين إلى أيديولوجيا.

الواضح من خلال أن حنفي لا يرفض التفسيرات القديمة بل يصنفها ضمن إطارها الزماني والمكاني، ولهذا اجتهد في إعادة بناء العلوم القديمة ورؤيتها من خلال واقعنا الآن. فهي علوم تكتنف على تفسيرات كانت مناسبة لواقعهم مختلفة عن واقعنا التاريخي، فالتراث والتجديد يمثلان عملية حضارية تهدف إلى التّنقيب لاكتشاف التّاريخ، وهي حاجة ملحّة ومطلب ثوري في وجداننا المعاصر كما يكشفان عن قضية البحث في الهوية عن طريق الغوص في الحاضر[2]. والبحث عن الهوية لا يتأتّى إلاّ عن طريق تحديد الصلة والعلاقة بين والآخر وهذه مهمة عملية قراءة التراث وتجديد لإنهاء هيمنة الآخر وإثبات الحضور عن طريق الأنا، فالآخر ثقافة غازية حسبه تحمل مجموعة من الأفكار بتنوّع مناهجها وتصوّراتها ومذاهبها وأفكارها ورؤاها[3]، ليأتي الأنا ليواجه هذه التحدّيات من

خلال مواجهة هذا الغزو الثقافي الذي كما يرى حنفي نحن عرضة لابتزازه في عصرنا هذا، وضرورة الانتقال من الوضع الضيّق من التحصيل والنقل إلى فسحة الابتكار والخلق .

إذن الواضح من قراءة التراث من طرف حسن حنفي هو محاولة موضعة هذا التراث في إطاره المكاني والزّماني المعاصر لإعادة بعثه من جديد في ظل الهيمنة السوسيوثقافية للفكر الغربي من جهة والفئة المناوئة من متزعمي مذهب النقل، خصوصا التيار الفكري السلفي أو حتى التيار السلطوي الدّيني خاصة في مصر بتعدّد الرؤى والأفكار والمشارب وضيق الأفق في أكثر الأحايين. قراءة تستوعب المستجدّات والأوضاع الفكرية .

الحوامل الموضوعية في قراءة التّراث:

في كتابه (علوم القرآن ـ من المحمول إلى الحامول) يؤكّد حنفي على فكرة الحوامل الموضوعية والّتي يقصد بها التاريخ عامة. وتشكلها ثلاثة عناصر أساسية : المكان، البيئة الاجتماعية، الزمان..يقول في هذا السياق:" ونعني بالحوامل الموضوعية كل ما هو خارج الوحي، كل ما يستند عليه الوحي للنّزول، وإظهار نفسه قبل تمثّل الذات له، رواية وقراءة وتدويناً أو فهماً وتذوقًا وتفسيراً. هي الحوامل التّاريخية مثل المكان والبيئة الاجتماعية والزمان. ومن ثمّ تكون مقولة التّاريخ هي الأنسب للتّعبير عنها. فالتّاريخ حامل موضوعي. ويضمّ الجغرافيا. فتاريخ المدن مثل مكة والمدينة أو تاريخ شبه الجزيرة العربية الممتدة من صحراء الشام إلى جبال اليمن لا ينفصل عن جغرافيتها"[4].

1/. فأمّا المكان فيقصد نقطة نزول الوحي، مكة والمدينة، حيث القرآن المكي والمدني حسب تصنيف المفسرين وعلماء القرآن، لأن المكان كما هو معلوم يعطي للنص حضورا في قلوب الناس ويؤثر في سلوكياتهم وأفعالهم . والمكان هو الأرض لا الجو ولا السماء لأنه لم تتح لإنسان ذلك العصر التعرّف على هذين الأخيرين وما يملؤهما. ويذهب حنفي إلى أنّ حتى المعراج الذي ذكر في الكتاب والسنة لم يكن بالبدن بل بالرّوح؟.. وهو مذهب الكثير من علماء التفسير والتأويل كصاحب الإتقان مثلاً.

ولمّا كان للمكان كل هذه التداعيات كان ضرورة لفهم النص ومن ثم ضرورة في تحديد المكي والمدني وعلاقة النّص بهما على مستوى الفهم طبعًا، اجتهد المفسّرون في تحديد القرآن المكي وتمييزه من المدني بضروب شتى من مثل السور التي تستهل بالحروف المتقطعة على شاكلة(الم.. كهيعص.. المر.. يس.. طه..)هي مكية ، أو التي تحمل قصص الأنبياء والأمم الغابرة، أو التي تحمل الوعيد والتهديد بألفاظ كـ(كلاّ).. أو حتى التي تبدأ أو تتضمن خطاب (يا أيها النّاس..). بل يذهب بعضهم إلى فروق ثابتة في أن ما نزل قبل الهجرة يعتبر قرآنا مكيا وما نزل بعدها يعتبر قرآنا مدنيا..

ويقرّ حنفي بمبدأ الفصل بين النصين في مقابل تأكيده على التّداخل بينهما، تداخل يطرحه مبدأ الزمان. يقول في هذا الشأن:" ولا يعني المكي والمدني الفصل التّام بين الزمان بل قد يتداخل الزمان في المكان. فالمكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها. وقد يتجاوز الخطاب المكان والزمان معا فيصبح المكي خطاب أهل مكة والمدني خطاب أهل المدينة بصرف النّظر عن المكان والزّمان. فالخطاب مرتبط بالبشر"[5]. وهنا نشير إلى أنه لا يهم البحث في الأمر لأن مهما كان فمكة أو المدينة ليس إلى وعاءان للنّص، والذي يهم من هذا كله هو النظام العام للشريعة والعقيدة معاً .

والمقدّس ليس الحامل ليس مكة والمدينة، ولكنّه المحمول هو القرآن كلام الله تعالى، ويبقى للمكان دور في استعادة التّاريخ واستعادة الروحانيات التي كان ولا يزال عليها بما قد يؤثر في القلوب ويزيدها إيمانا ليس إلاّ. على اعتبار أن مكة مهبط الوحي والكعبة أول بيت وضع للنّاس يقصده الناس من كل حدب وصوب، للتبرّك أو للتجارة أو حتى للسّياحة. يذهب حنفي إلى أبعد من ذلك في اعتبار أن نزول الوحي بمكة والمدينة لا يعني أنهما مدينتان مقدّستان. يقول في هذا الشأن:" ونزول الوحي بمكة والمدينة لا يجعلانهما مدينتين مقدّستين، محطتين للزيارة، والتبرّك والمجاورة فيهما. فالمقدّس هو المحمول وليس الحامل. والزيارة ليست للمكان بل لاستعادة الذاكرة ولتفعيل الوحي في القلوب. تقديس المكان هو عود إلى الوثنية القديمة وإلى الكعبة عندما كانت مكانا للآلهة وتجمعا للأصنام. تماما مثل

تقديس المصحف ورقًا وحبرًا وتجليدًا وقطيفة مذهبة وليس الكلام المدون فيه. ومثل تقديس سجادة الصلاة والسبحة والجلباب والذقن والطاقية، وليس شعائر الصلاة والاستفادة منها في الحفاظ على الوقت وتأدية الواجبات في أوقاتها على الفور وليس على التراخي، أداء وليس قضاء"[6]. ومثال مكة، المدينة، فهي لا يعتدّ بها تبركًا بوجود قبر الرّسول عليه الصلاة والسّلام ، أو روضته وكذا قبور كبار الصحابة، أو حتى مقبرة البقيع لما فيها من رمزية تاريخية ما فيها. إنّما الحج نحوها لما فيها من استحضار للقيم الروحية التي أسس لها النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

الواضح من خلال ما ذكرنا أنّ دلالة المكان دلالة روحية لا غير وإن كان تلك الروحانية دليل مهم في فهم النّص وتأويله واستكناه مختلف دلالاته من خلال إسقاط الواقع المكاني على النص حيث تختلف الدلالات من مكان لآخر كما تختلف زمانا أيضا. بعيدا عن الهالة القدسية لهما . فالمقدس أولا وأخيرا هو المحمول وفقط.

2 ـ وأمّا البيئة الاجتماعية فنعني بها "المجتمع الصغير أو الكبير الذي نزلت فيه الآية لحل مشاكله والردود على أسئلته والاستجابة لمطالبه"[7]، على أن لفظ بيئة يوحي بالظروف الاجتماعية التي كان يحي المجتمع العربي آنذاك في شبه الجزيرة العربية، فتداخل ثقافة المجتمع وارتباطه بعاداته وتقاليده وانسجام لغته وأفكاره وطرائق العيش المختلف كان منسجما مع النص المنزّل على أحد أعضائه وهو النبي الكريم. ولهذا كانت (أسباب النّزول) أحد أهمّ علوم القرآن عند العلماء الأوائل لفهم هذا النّص وتأويله، وهو بحث في أهم الأحداث التي نزل فيها القرآن مجتزأ في شكل آيات أو سور، وكيفيه النزول أو علله في صورة موقف من الوحي بالسماء إلى النبي بالأرض. وعليه ألفت تآليف كثيرة في هذا العلم نذكر منها (أسباب النّزول) للواحدي، و (العجاب في الأسباب) لابن حجر العسقلاني، ولا ننسى (لباب المنقول في أسباب النزول) لجلال الدين السيوطي وهو كتاب يعتمد في صاحبه على جملة التفاسير التي سبقته وآراء الفقهاء ممن عاصروه أو ممن سبقوه كابن تيمية. وللسيوطي أيضا كتاب في هذا الباب عنونه (الإكليل في استنباط

التّنزيل) يعرض الأسباب آية آية وسورة سورة بهدف الفهم على اعتبار أن التنزيل لا يتعارض مع التأويل من وجهة نظر صاحبه..

يظهر اهتمام حنفي بأسباب النزول كرافد في بيئة اجتماعية متفردة في لغتها وتفكيرها فقد كانت مكة مركز تجمع لمختلف الثقافات أثناء مواسم الحج، نزل لأجلها القرآن بناء على نداء الواقع فالواقع يطلب النّص وعندها يأتي الفكر ليطوّر ذلك الوقع إلى كماله الطبيعي عن طريق القراءة وإعادة الفهم يقول حسن حنفي في هذا الشأن:" "فالنّص القرآني نزل بناءً على نداء الواقع واكتمل بناءً على تطوّره، وأعيدت صياغته طبقًا لقدرته وأهليته على ما هو معروف في النّاسخ والمنسوخ، وهبَ عملية جدليّة بين الفكر والواقع، الواقع ينادي على الفكر ويطالبه، والفكر يأتي مطوّرا للواقع ويوجّهه نحو كماله الطبيعي، ثم يعود الواقع فينادي فكراً أدقّ وأحكم حتّى يتحقّق الفكر ذاته ويصبح واقعًا مثاليًا يجد فيه الواقع كماله"[8]. إذن فحنفي يثبت الجدلية القائمة بين النص والواقع مثله مثل مفكري عصره ونقصد خصوصا المفكر نصر حامد أبو زيد الذي يرى أن هاته أسباب النزول مدخل هام لفهم النص وتأويله، حيث يرى لها مجموعة من الدوافع أو الأسباب الّتي تعين على ذلك، نذكر منها[9]:

_علاقة النّص بالواقع استنادًا إلى أسباب النّزول.

_وظيفة أسباب النّزول في ضبط دلالات النّص.

_النّتائج الخطيرة المترتّبة على التّمسك بعموم اللّفظ وإهدار خصوص السّبب.

_السّبيل إلى تجاوز منهج القدامى في التّعامل مع أخبار أسباب النّزول.

في تبريره لهذا الواقع يذهب حنفي إلى الاعتداد بمبدأ السؤال والجواب وعلاقته بأسباب النّزول، فهو يرى أن الآيات القرآنية استدعتها ضرورة الإجابة عن أسئلة كان قد طرحها النّاس كفار قريش أو ممن أسلموا مع محمد فتأتيه الإجابة من فوق سبع سموات ولا أدلّ على ذلك السياق الذي وردت فيه الكثير من الآيات بلفظ " يسألونك."،ومثاله "يسألونك عن الروح،قل الرّوح من أمر ربي" وقوله:" يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت

للنّاس والحجِّ"، وقوله:" يسألونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل.."ى بل إن بعضها كان يتنزل لسؤال المصطفى لذاته أو ما يجول في خاطره في صورة حيرته القبلة وأي جهة سيتوجّه نحوها " قد نرى تقلّب وجهك في السّماء فلنولينّك قبلة ترضاها" .. وهي في أصلها إجابة على أسئلة يطرحها الواقع بهدف تنظيم شؤون العامة في أخلاقهم وسلوكاتهم وأمور دنياهم وكذا في عباداتهم بما يؤسّس لمجتمع جديد أو دولة جديدة قوامها الأخلاق والعدل ومختلف القيم الرّوحية والمادية..

3ـ الزّمــان: يقترن الزمان كحامل موضوعي بالأخص بمسألة النّاسخ والمنسوخ وهي إحدى أهمّ علوم القرآن، ونعني بها:" إلغاء الحكم السابق بحكم لاحق بعد فترة زمنية من أجل تعديل الحكم وإعادة تكييفه طبقاً لتجربة التّطبيق الأولى تخفيفاً وهو الغالب أو تشديداً وهو الأقلّ"[10]. ومسألة الناسخ والمنسوخ مسألة طبيعية في التشريع الإسلامي لأن الأمر يتعلق بالتدرّج في التوجيه والأمر التشريع بالأحكام المقيّدة خصوصا، فالقرآن يخاطب أمة جديدة على الإسلام دين جديد يقيّد سلوكياتها وما كانت عليه من وثنية وعبثية وجهل ملزم بالتدرج في عملية التقييد والنهي والأمر خاصة المحرّمات التي ألفتها قريش. ولا أدلّ على ذلك الخمر فقد كان تحريمها بها تدريجيا حيث نسخت الآيات بعضها بعضا بفعل الزمن وبدافع التدرج في تطبيق العبادات حتى لا يثقل على الناس أمر هذا الدّين جاءت الآيات الأولى :"لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى".. ثم ـ نسخت بقولها تعالى :"يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" (المائدة 90).

وقد شدّد العلماء في هذه القضية على وجوب العمل بالناسخ قبل وجود بالمنسوخ، وهذا أمر طبيعي يقتضيه التدرّج في الأحكام وبينهما فترة زمنية معلومة قد تطول وقد تقصر بحسب تطور الأوضاع وسرعة استجابة المرسل إليهم لتلك الأحكام. وهذا ما يذهب إليه حسن حنفي إذ يقول:" والنّسخ ممكن عقلا وشرعا لأنّ الواقع يتغير والوحي

يتطور بتطوره، ويعدّ درسا في التّجريب، وأولوية الواقع على الوحي، ودخول عنصر الزمان في تطور الأحكام، فهي متغيرة بتغيّره، ومتطورة بتطوّره"[11].

على أنّ بعض العلماء من أنكر النسخ وهم قلّة لكن في مذهبهم هذا "إسقاط لمفهوم الزمان من الحساب والتطوّر من الوحي، إنكار النّسخ إنكار للتّغيير والتّغيير سنة الكون"[12]، ثم لأنّ النّسخ واقع بنصّ الآية الصريح :"مَا نَنسَخُ مِنْ آيَة أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير" (البقرة106). فتغيّر الظروف والأوضاع السوسيوثقافية والاقتصادية وحتى السّياسية يحتّم تغيير الأحكام حيث لا يزال الوحي يتنزّل على النبي الكريم، وحيث أن محمدا (ص) لا يزال يؤسّس لدولته الجديدة. حيث يقتضي التطور أحكاما أخرى جديدة ومتجدّدة وأخرى ناسخة لما سبقها.

كما أنّ النَّسخ كان في أحكام محدّدة استنتجها العلماء كالأوامر والنّواهي والتّكليف ويكون جزئيا أو كلّيا بعلّة مقصودة، ولا يكون النّسخ في العقائد أو في الأخبار والقصص، حيث لا يمكن نسخ قصة بأخرى وقد فصّل في الأمر صاحب الإتقان حيث ذهب إلى أنّ النّاسخ والمنسوخ في القرآن أربعة أقسام: قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ، وقسم فيه ناسخ ومنسوخ، وقسم فيه ناسخ فقط دون منسوخ، وقسم فيه منسوخ فقط دون ناسخ[13]. وهذا يقتصر على سورة دون أخرى أو في السورة الواحدة يكون الناسخ والمنسوخ أو أحدهما في سورة والآخر في أخرى.. والأغلب "هي السور الخالية من كليهما ممّا يدلّ على أولوية الثبات على التّغيير"[14]. وإنّما وجوده كان دليلاً على "قدرة الواقع على تجاوز الأحكام"[15]. ولهذا فصّل العلماء في هذا العلم واشترطوا له شروط ومستويات وأقسام ودلالات ليس المجال هنا لحصرها والحديث عنها . فالذي يهمنا هو أن علم الناسخ والمنسوخ من علوم القرآن حامل موضوعي مرتبط بالزمان وتطور الواقع المعيش الذي كانت تحياه شبه الجزيرة العربية آنذاك لتنسحب على الأزمنة التي تليها من بعد ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إجمالا مما سبق يتّضح أن حسن حنفي وهو يشد على مبدأ الانتقال السلس من أفهوم النقل إلى واقع العقل والمنطق في ولوج علوم القرآن من مبدأ رفض منطق قدسية الفكر الدّيني إلى رحابة المقدس المطلق الذي هو النّص القرآني لا غير. نجده يعيد النبش والحفر في بعض الحوامل الموضوعية وهي أصلا متعلّقة بالتاريخ كالمكان (المكي والمدني)، والبيئة الاجتماعية (أسباب النّزول والوحي والواقع)، والزمان (النّاسخ والمنسوخ). وذلك بغرض إثباب أسبقية العقل على النقل في إثبات هاته الحوامل مما يساعدنا على إعادة قراءة النّص وتجديد ما حمله إلينا من شرائع وأحكام وفق معطيات العصر وما تقتضيه التحوّلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة في العالم أجمع .

الهوامش :

[1] - حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، ط5، المؤسسة الجامعية للدراسات، إربد،الأردن،2010، ص7.

[2] - ينظر: حسن حنفي،المرجع السابق، ص10.

[3] - المرجع نفسه، ص13.

[4] - حسن حنفي،علوم القرآن من المحمول إلى الحامول، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2014، ص51.

[5] - حسن حنفي، المرجع السابق، ص55.

[6] - حسن حنفي، المرجع السابق، ص 57.

[7] - نفسه، ص61.

[8]. حنفي حسن ، من العقيدة إلى الثورة، ج2، د/ط، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988، ص505/504.

[9] - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص ـ دراسة في علوم القرآن، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص99

[10] - حسن حنفي، علوم القرآن ـ من الحامل إلى المحمول، ص 115.

[11] - حسن حنفي، المرجع السابق، ص127

[12] - ابن سلامة أبو القاسم، النّاسخ والمنسوخ، ط2، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، مصر، 1967، ص 9.

[13] - ينظر: السويطي جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن،ج3، تحقيق محمد أبو فضل، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1994.

[14] - حسن حنفي، المرجع السابق، ص130.

[15] - المرجع نفسه، ص130.

*** *** ***